محمد مهدي الجواهري

شهادات أدبية. . . وآراء ذوقية

بأقلام:

- هاشم الطعان
- بلند الحيدري
- عبد الرحمن منيف

obeikandl.com

obeikandl.com

الجواهري والتراث

ملاحظات انطباعية

بقلم: هاشم الطعان

ـ ستسهم معنا بأن تكتب عن الجواهري والتراث.

ووافقت دون تردد.. ونسيت كل ما غرسه الدكتور علي جواد الطاهر في نفسي.. من أن الجواهري أكبر من أن يدرس...

حسناً.. ليكن ذاك.. ولكنني لا أدرس الجواهري.. كله.. إنما هي مسألة سهلة المأخذ يسير التحدث فيها، حتى أني لأفكر أن آخذ قلمي فأبدأ ولن أضعه حتى أنتهي.. الجواهري تراث من أي النواحي أتيته.. ومن ذا الذي يفكر بالتحدث عن الجواهري بمعزل عن التراث..؟ وأكاد أقول من ذا الذي يفكر بالتحدث عن التراث بمعزل عن الجواهري؟..

ومع ذلك.. فأنا أتردد.. أتهيب.. أأكون قد تعجلت في استجابتي.. ويبدو أن هادياً قد أدرك ثقل ما كلفني وكلف به غيري.. فإذا هو سهل يتبرع بتأجيل موعد تسليم البحوث المرة تلو الأخرى دون أن يعاتب.. أو يلحَّ..

ولم أعدم حجة أقطع بها صاحبي..

ـ أتذكر قصيدة الجواهري في المستنصرية؟

ـ أذكرها..

ـ تذكر قوله..

وخاطوا عليك الجفن خوفاً من الأذى

إليك على أهدابهم يتسرب

obeikandi.com

ـ أجب..

ـ إن له أصلاً تراثياً في كتاب الأغاني.. لقد قرأت الأصل في الأغاني أنا متأكد من ذلك.. كان هذا قبل بضع سنوات.. وعليّ أن أعيد قراءة مجلدات كتاب الأغاني لأجده.. أتظن الأمر سهلاً إلى هذا الحد..

ولكن أيمكن أن تناقش علاقة الجواهري بالتراث على أساس مفهوم السرقة الشعرية التقليدي..

ورفضت المسألة.. وأرفضها بالنسبة لكل شاعر أصيل..

وكدت إثر ذلك أن أدخل في مسالك اللفظ والمعنى الوعرة.. وكدت.. وكدتُ..

»٢«

أسلفت أن علاقة الجواهري بالتراث مسألة مفروغ منها.. وهو نفسه قد طرح المسألة ووضع أيدينا على حلها:

((احفظوا أيها الشباب في اتحاد الأدباء شعراً كثيراً كثيراً، كثيراً وأدباً مضاعف الكثرات كذلك قبل أن تقولوا شعراً كثيراً أو قليلاً..إنكم إذ تحفظون فلا بد لكم أن تفهموا ما تحفظون ثم لا بد لكم شئتم أم أبيتم أن تهضموا ما فهمتم ثم لا بد لكم مع ذلك أن تتفتح أمامكم آفاق الحياة فيما تهضمون، لا بد لكم أن تبدلوا كثيراً من مفاهيم الأمور والأشياء والأشخاص والجماعات على ضوء من هذا الهضم الواسع العميق....))[1]

(١) مجلة الأديب العراقي. العدد الأول ١٩٦١ من مقالة للجواهري بعنوان (المفردة حياة حافلة وليست حروفاً).

obeikandl.com

أرأيت إذن كيف يشخص الجواهري العلاقة الصحيحة المثمرة بالتراث..أرأيت كيف يستحيل التراث عند الجواهري وكيف يريده أن يستحيل عند غيره من الأدباء إلى نسغ صاعد.. كما يفعل النبات بغذائه.. الذي كان شيئاً آخر.. شيئاً له تاريخ.. أخذ منه ما أخذ وطرح منه ما طرح.. و(هضم).. هنا النقطة.. هضم ما أخذه فإذا هو مزهر.. ومثمر.. وإذ بالثمر المتوهج رواء يستوقفنا فما نفكر فيما كان.. ولا نعرف ما كان إلا أن علماء النبات يعرفون جيداً ما كان.. يعرفون أصل كل جزيئة.. ولكنهم لا يستطيعون في (مختبراتهم).. لا يستطيعون ولا تستطيع مختبراتهم معهم ما تستطيعه شجيرة نارنج في ركن حديقة بيت فلسطيني أو ما تستطيعه نخلة تلهث في واحة من واحات هجر.

هذا هو الشعر.. الشعر.. وهذا هو الجواهري.. تستطيع أن ترجعه إلى عناصره الأولية.. لكنك لا تستطيع أن تصوغ ما يصوغه من هذه العناصر..

وقد بدأ الجواهري من حيث يجب أن يبدأ.. واقرأ معارضاته الأولى للشعراء في (حلبة الأدب) تجده (يبشر) كما (تبشر) شجرة الرمان بزهرة أو اثنتين.. وانتظر موسمها القادم واستعمل محسبة الكترونية لتحصي الزهر..

وهنا نضع أيدينا على بديهية.. تحاول أن تكون غير بديهية، فما هو التراث عند الجواهري.. وعندنا..؟

إن عبق التاريخ الذي يفوح من هذه الكلمة وما تجر وراءها من اشتقاقات وما ترجع إليه من جذور لا يجعل الجواهري يخرج على المقصد الأجود.. فكل حسنٍ في الفكر تراث وإن كان معاصراً. والجواهري على هذا تراث.. لذا نجد الجواهري (يعارض) شوقي و(الشبيبي) إلى جانب معارضته للتهامي وابن زيدون.. وقد وضعت كلمة يعارض بين قوسين لأني أعني بها ما لا يعنيه اصطلاح المصطلحين في هذا الفن..

ويبدو أن لا بد من نقل كلام ابن قتيبة حول هذا الموضوع، قال:(... فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه (رأى) قائله.

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن من دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرف خارجية[1] في أوله.

فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته.

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم....)[2]

«٣»

قلت إن الجواهري بدأ بمعارضات، كانت (تمارين).. لترسيخ قدمه.. ولم يطرح الجواهري أسلوب المعارضة بعد نصف قرن من ممارسة الشعر وبعد أن أصبح شاعر العرب.. على أن المعارضة عند الجواهري شيء يختلف عما يوجبه هذا المصطلح فهو يختار.. ربما بلا وعي قصيدة يحس أن وزنها وقافيتها ينهضان بما يريد أن يقوله.. ويا رحمتا بعد ذلك لهما.. فقد حملا ما لم يحمله الإنسان الظلوم.. ونهضا بما لم تنهض به العصبة.. ولن يذكر أحد أن الوزن والقافية ينهضان بقصيدة أخرى.. إلا (المختبريون) أجل.. إن الأوزان معدودة.. والقوافي محصاة.. ولا بد لشاعر جاء بعد ملايين الشعراء أن ينظم في واحد أو أكثر من البحور الستة عشر.. وأن يختار حرفاً من الحروف الثمانية والعشرين قافية... ولا بد بعد هذا وذاك من أن يلتقي هذا البحر هذه القافية وحركتها عند الجواهري كما التقيا عند ابن زيدون أو عند التهامي.. أو المتنبي.. ويخذلك (علم الاحتمالات الرياضي) حين تتحدث عن المعارضة.. ويخذلك

---

(١) الخارجي الذي يشرف بنفسه كالعصامي

(٢) الشعر و الشعراء - ط بيروت - ص١٠.

obeikandi.com

الجواهري نفسه حين يقول الشعر.. وتضطر إلى التساؤل ما (نونية ابن زيدون) إلى (أم عوف)..

مع كل ذلك.. فالجواهري وارث... وهو تراثي جيد وهو يختار.. قلت ربما بلا وعي القوالب التراثية لمعلقاته..وقد لقيت العشرات يتذكرون (ويل لبغداد) الرصافي حين يقرأون (دجلة الخير) الجواهرية. وبعد ، فنحن نسأل.. أهذا كل ما حمله نسغ الجواهري الصاعد إلى قصائده من التراث..؟..

كلا وإني لاستعملها زاجراً.. كلا.. وإلا فإن النسغ لم يحمل (شيئاً)..

فما هي روافد الجواهري..؟

بل ما هي منابعه؟...

«٤»

نستطيع أن نجمل موجزين فنقول إن كل الفكر العربي، وشيئاً لا يستهان به من الفكر العالمي هو (تراث) الجواهري..

ولن نحتاج إلى الدليل.. ولن نجد شخصاً يعتد به يتحدى هذا القول. فأنى التفت في شعر الجواهري وجدت أثر القرآن الكريم والمعلقات وجرير والمعري والمتنبي وابن زيدون.. والبحتري.. و و..

ولقد كنا نروي، ولا أدري قيمة هذه الرواية في علم الجرح والتعديل.. إن الجواهري كان يحفظ ديوان المتنبي وهو صبي يلعب في الأزقة..

ويوماً كان ينشد من مقصورته .. فلما وصل إلى قسمه بالمتنبي.. قطع إنشاده وعلق (المتنبي العظيم) .. وقال لي جاري ونحن نصغي.

ـ لا تصدقه .. إنه بالبحتري أشد إعجاباً ..

obeikandi.com

وأرسل في مهاجره الأخير يطلب ديوان البحتري وكتاب الأغاني سميري غربة...

ويقال ـ وفي القول كثير من الصواب ـ إن نسجه بحتري ..

ولكننا نظلم الرجل إن قصرنا تأثره على المتنبي أو البحتري أو على أي شاعر آخر.. أو على أية فئة من الشعراء .. أو طبقة منهم .. الجواهري وارث كل ما يخطر بالبال .. ومجسد لخير ما في تراثنا الأدبي..

»٥«

وكنا نلتقي في ركن مقهى لنقرأ قصيدة جديدة للجواهري أو نجتمع في بيت صديق لنذكر قصائد الجواهري القديمة (الجديدة) أو نتصادف على قارعة الطريق لنقول كلمة في الجواهري..

كنا ـ وللشباب عذره ـ نتسقط أغلاط الجواهري في اللغة والنحو ... ثم مشى بنا الزمن فإذا بنا نجد أغلاطنا في تغليطه ..

وكنا نأخذ عليه إغرابه .. واختياره للأوابد وحوشي الكلام ... ثم صرنا إلى حيث نعتقد أن الجواهري بث حياة في هذا كله .. فما هو حوشي ولا هي أوابد ..

وعدنا إلى أضعف الإيمان .. فإذا كل قصيدة جديدة للجواهري نجدها دون سابقاتها .. ثم نديرها على ألسنتنا .. ونرددها .. ونناقشها .. ونتمثل بها .. فإذا هي من (سابقاتها) اللواتي ستكون الجديدة (أضعف منهن !!.)..

لقد قيل الكثير عن الجواهري.. وسيقال الكثير.. وسيبقى الجواهري (جواهرياً).

الجواهري وطور من الأمس

بلند الحيدري

ما عنّ لذاكرتي قول أبي الطيب المتنبي في وصف إبائه وشموخ طموحه، على ندرة ما يستحوجنا الواقع اليوم إلى مثل هذه النماذج، بعد أن شاهت النفوس وصغرت مطامحها واستكانت إلى الذلة لتصخب دفوف أعشى ميمون وراء كسب رخيص بمدح هذا أو ذم ذاك.. ما عنّ لي أن أتذكر قوله:

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه وأراد لي فأردت أن أتخيرا

إلا وتذكرت صنوه في الشعر والإباء، "أبا فرات"، محمد مهدي الجواهري وهو في التسعين من عمره، أطال له طيلته ـ يعاني من ألم الغربة ما يعاني، بعد أن أبعدته كبرياؤه عن أهليه ومحبيه وأبناء وطنه، وذلك على الرغم مما كان يمكن أن يكون له من متاع الدنيا من قصور وسيارات وضياع وخدم وحشم، غير أن الجواهري لم يكن لأحد كما كان لنفسه، وأمانته لقيمه، فإن مدح بظنة حسنة، وإن أخلص لمن أصفاه الود فاصطفاه، كان لهما الكثير منه، وإن نكثا بوعودهما الخير كان الثائر عليهما من دون هوادة. وإذا كان للظروف أن هادنته فهادنها، وسايرته فسايرها فلفترة وجيزة، عاد بعدها، وكما كان دائماً، يرفع إصبع إدانته ضد ظالمي شعبه ويحث الناس على قتالهم.

أنا حتفكم ألج البيوت عليكم أغري الوليد بشتمكم والحاجبا

فلا يسلم من مطاردتهم إياه من سجن إلى سجن ومن توقيف إلى توقيف ومن منفى إلى منفى، فقد كتب عليه أن يكون "أكثر من أي شاعر عشته وعاشني، انشداداً بالجماهير العربية" التي أبت عليه أخلاقه أن يخونها، معترفاً في الآن ذاته،

بخطأ في التقدير جره في بعض الأحيان إلى أن يظن الشحم فيمن شحمه ورم. "أقول هذا ولست ناسياً أو متناسياً حصتي أنا بالذات من هذا كله، كفرد من الأفراد أو واحد من الجماعات الذين يبتغون أن يزيحوا عن أنفسهم وذواتهم بحد ذاتها، غشاوة ما عاشوه وكابدوه، وما اختلطت به عليهم سبل الحياة ومفارق طرقها فيما بين تلك المعايشة والمكابدة، مما لا بد له، بحكم الطبيعة والمنطق، من أن ينطوي على الشيء وضده، أفراحاً وأتراحاً، مسرات وأحزاناً، صعوداً ونزولاً، انتصارات وهزائم، جموحاً وكبوات، عداوات وصداقات".

وهو اعتراف لا يريد منه تبرئة ذمته مما يمكن أن يكون قد اختلف إليه شيء مما اختلف لأي إنسان آخر في حلكة تاريخ العراق المعاصر والملأى بالتكتلات الحزبية والطائفية وأجواء العمالة، وكل شعار ارتفع هنا أو هناك لم يكن غير وهم وسحاب خلبٍ، وقد تمرّس الجواهري بها كلها. وانخدع ببعضها كما انخدع آخرون، ولكنه بقي دائماً على مثل ما كان، في صدقه واعترافه بأخطائه وفضح الحقائق التي تسترت عليها تلك الشعارات البراقة، فها هم هؤلاء الذين صفق لهم عالياً على أمل أن يكون الخير من أيديهم لشعب العراق، قد انقلبوا على أعقابهم، وأصبحوا الطغاة المتجبرين على شعوبهم، ووظفوا سلطتهم ضد كل ما تنادوا إليه بالأمس. وليس له إلا أن يعود لقلبه وضميره وشعبه، ليشن حربه ضدهم ويعلن غضبه عليهم، وليكن بعد ذلك ما يصير من بعض قدره في الغربة أو في السجن أو في الفقر.

وفي الجزء الأول من كتابه "ذكرياتي" فصول رائعة تلقي الكثير من الضوء على الكثير مما لقيه، ومما لم يلق مثله لا الرصافي، على علو همته، ولا الزهاوي ولا أي شاعر غيرهما من شعراء العراق الكبار، الذين أدلوا بدلائهم في قضاياه الاجتماعية والسياسية. فليس لأي صوت من أصواتهم ما ماثل صوت الجواهري في تمايزه عنهم جميعاً.

وأركب الهول في ريعان مأمنه

حب الحياة بحب الموت يغريني

فالجواهري، كما أورد في كل صفحات ذكرياته، وكما عرفه كل عراقي وكما صادف أن تحدث إلينا عن أيام سود وأيام بيض، وأيام اختلطت ألوانها. فيتيامن حيناً ويتياسر حيناً وظل في جانبيه، ورغم عتمة الأولى وصباحات الأخرى، وضياع الثالثة فيما بينهما لا يدور بخلده "ولا بحسابي ولا بتخطيط متعمد أن يكون ما اخترته من أن أكون للناس ومع الناس بديلاً عن فوات كل الطموحات الأخرى، لقد كان محض مزاج ليس إلا..."، بل أكثر من مزاج، إنه الإنسان الكبير الذي يرفض أن يتواطأ مع نفسه ومع الآخرين للنيل من شعبه، فما قيمة أن يأتوا به نائباً في مجلس النواب وهو لا يسأل، وقبل أن يسألوه عمن سيمثل من الناس، هؤلاء الذين أحبهم وأحبوه، أو دم أخيه جعفر الشهيد، أو جوع أهل بلده "... وأي نائب؟.. بالطبع هو أمر لطيف أن يكون الإنسان واقعياً، أن يصبح وزيراً، حاكماً، نائباً، عيناً، فضلاً عن أن يكون رئيساً لمجلس الوزراء وذلك بشيء من النفاق وببعض من التحايل وقليل من الذكاء والفطنة. ثمة شهود عدول على ما فوته على نفسي ولم يفوته الآخرون من أترابي".

وكانت كل تلك على مد ذراع منه، لو أرادها أو طمح فيها، وحسب الرجل فخراً ما فوته على نفسه. وحسبنا منه أننا نتذكره في كل ذلك، وفي منفاه وهو يمد بقامته المرهفة عالياً. حسبنا أن نتذكره اليوم في غربته القاسية، لنتمنى أن يكون لنا شيء منه، ولو كان شيئاً صغيراً من همته وصبره الرائع على تعسف المتعسفين وكيد الظالمين وسوء دورة الأيام في هذا الزمن السيء.

وإذا كانت جماهير الأمة العربية، التي أدركته في كونه أكبر شعرائنا المعاصرين إطلاقاً، وأكثرهم تمثيلاً لهم في تطلعاتهم وآلامهم وخيباتهم وانتصاراتهم، فإن ثمة نفراً، لهذا السبب أو ذاك، أو بأثر من انتماءات مشبوهة، أو لتملق لأصحاب السلطة، لا يزالون يحاولون النيل منه، باستعادة صور باهتة عنه، وأن يجعلوا منها محاور رئيسة للتحدث بها عن هذا الرجل الفذ، وقد كان الرجل هو أنه تحدث عنها قبل أن يتحدثوا عنها. وإن طوال معاناته وطوال غربته وطوال سنوات لجوئه في هذا البلد أو ذاك هي في النهاية الشاهد له، وإن غشاوة وقعت لعينه للحظة من الزمن، ما

كانت لتكون لولا رحابة صدره لأن يغفر لهذا الإنسان أو ذاك، وبما يريد به لهما أن يبدأ دوراً جديداً في الحياة، ومن خلال إيمانهما بشعبهما.

وإذا كانت العبرة بالخواتم، كما يقال، فأية خواتم كانت للجواهري غير أيامه الملأى بكل ما يعمق وعيه بأن تعاسته هي الدليل الناصع على ما يكن لوطنه، وأنه إذ يرحل من أرض إلى أرض، سيظل يحمل معه حنينه الدائم إلى إخوته وأصدقائه وإلى من أحبهم وأحبوه.. وإلى أن نسأل من عاداه عما له ضده..

بمـــاذا يعيرنـــي الأرذلـــون ومـــا تخـــاف صـــلال الفـــلا

وأن يتمنى لأعدائه ما كان له من عذاب دنياه:

صـــاحبي لـــو تكـــون مـــن أعـــدائي

لتمنيـــــت أن تمـــــوت بـــــدائي

لتمنيـــت أن يكـــون لـــك الطـــو ـــ

لان، طـــول الأذى وطـــول البقـــاء

كان المنتصف الثاني من أربعينيات هذا القرن، حلبة صراع كبير، ما ملأها إنسان كما ملأها الجواهري، فظلا الرصافي والزهاوي قد انحسرا، وظروف العراق اليوم هي غير ظروف أمسه، وليس لشاعر أن يقف أمام أحداثه إلا الجواهري، الذي شغل الحديث عنه جميع الناس، فمن أدركه في شعره عرف أي بون بين شاعريته وشاعرية كل من سبقوه، ومن كان ينتظر مقالاته في صحيفته اليومية كان ينتظر منه أن يدله إلى ما يجب عليه أن يعمل. وكانت السلطة، كل السلطات، تنظر إليه بحذر وتهدده وتتوعده وتغريه بمناصب يسيل لها اللعاب إلا لعاب الجواهري. وكنا، نحن الذين كنا نحاول أن نتلمس أنفسنا في تجربة جديدة للحداثة الشعرية، لا ننفك عن مسعانا لأن نكون على مقربة منه ومن عطفه علينا، كنا نحاذيه في مجلسه في هذا المقهى أو ذاك. ولشد ما كنا نكبر أنفسنا عندما

كنا نراه يبتسم لنا بكثير من الطيبة. ولقد تجرأت ذات مساء واخترقت مجلسه العامر بالأدباء والسياسيين من أهل جيله، لأقدم له ديواني الأول "خفقة الطين" الذي كان قد صدر حديثاً في عام ١٩٤٦، وبعد أن ملأت صفحته الأولى بكل كلمات الإعجاب والإطراء، وقف الرجل وتسلمه مني وهو يكرر: "شكراً.. شكراً" ثم جلس وقلب عدداً من صفحاته ووضعه بعد ذلك إلى جانبه.

ولكم كان شعوري بالخيبة كبيراً، أن يعيد لي ديواني في اليوم الثاني أحد العاملين في المقهى. فقد نسيه الجواهري.. من يدري ربما تناساه عمداً.

وفي المساء ذاته يجيء الجواهري إلى المقهى ليتخذ فيه ركنه المفضل مع شلته، فاندفع إليه، وما كاد يراني حتى ابتسم لي ابتسامته الدافئة وهو يقول: "عندك شعر حلو".. وبشيء من الفظاظة غير المعهودة في قلت له: "لكنك تركت الديوان هنا فمتى قرأته..؟!" صمت قليلاً ثم أردف قائلاً.. "اليوم صباحاً قرأته.. وفيه أشياء أعجبتني.. عجيب"، وتذكرت أنني كنت قد بعثت بنسخة باسمه قبل أيام إلى عنوان الجريدة.

كنا نكتفي بلقائنا به بمجاورة مجلسه لنسمع ما يتحدث به أو وهو يتمتم بأبيات من قصيدة جديدة، أو وهو ينثر غضبه يميناً وشمالاً على بعض مناوئيه. وكان أحياناً يقف معنا للحظة وهو يسدي إلينا النصح في جملة قصيرة ككل جملة فيعلق واحد ممن كانوا معه ساخراً "إنه يأخذكم على مستوى عقلكم".

ورغم ما كنا نريده لشعرنا الجديد من الخروج على ربقة شعرنا القديم، فقد ظل الجواهري شاعرنا الكبير المتميز برهافة شاعريته، وقربه من إشكالات مجتمعه وأمته، وحسن بناء قصيدته ومتانتها، وروائع صوره الشعرية ذات الأبعاد المتعددة في الواقع والرمز. فقصائده تبقى قريبة المنال بهمومها ومضامينها، وبعيدة المنال برموزها في الآن ذاته، وكانت حماسة بدر شاكر السياب له لا تماثلها حماسة أي واحد منا "فلا متنبي بعد المتنبي إلا الجواهري".

وصار لي أن التقيه ما بين يوم وآخر في "اتحاد الأدباء العراقيين"، في أوائل الستينيات ليحدثنا طويلاً عن ذكرياته، أو يروي طرائف مما وقع له مع هذه الشخصية أو تلك. وأحياناً كنا نتركه لوحده عندما نرى شفتيه تتمتمان بما يخيل

لنا بأنه في سبيل كتابة قصيدة جديدة.. وأحياناً ومن دون سبب واضح، يدخل الاتحاد وفي عينيه نية مبيتة على إثارة مشكلة نختلف فيها ليكون لنا بعد ذلك أن نصمت أمام غضبه المنفجر، وأذكر مرة أنني كنت في جلسة مع المرحوم الشاعر محمود الحبوبي والأستاذ العلامة مهدي المخزومي، وكان الحبوبي مستأنساً بقراءة أبيات من قصيدة "بشر بن عوانة" وهو يهتز طرباً مع كل بيت يردده:

إذن لرأيت ليثاً أم ليثا ... هزيراً أغلبا لاقى هزيرا

تبهنس إذ تقاعس عنه مهري ... محاذرة فقلت: عقرت مهرا

أنل قدمي ظهر الأرض إني ... رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وفجأة يصرخ الجواهري به: "..إنه أسد وليس قطة.. كفى كذباً وترديداً للكذب.. هذا الكذب هو الذي أوصلنا لهذا الخضيض الذي نحن فيه".

ونحاول أن نخفف من غضبه دون جدوى، فلا بد لغضبه أن يأخذ مداه، ومثل هذا الغضب كثيراً ما كنا نفاجأ به في جلسات الهيئة الإدارية في "اتحاد الأدباء"، والذي كان هو رئيسها، فيسد علينا باب الحوار فنضطر إلى إرجاء البحث في موضوع الجدل إلى اجتماع آخر حيث يمر الإقرار بالإجماع ودون أية كلمة اعتراض من الجواهري.

وهو، في غير ذلك، دمث الخلق واسع الصدر، حلو النكتة، وإن أخذ علينا موقفاً سعى بالتلميح إليه قبل التصريح بوضوح، ومن ذلك أن رهطاً من الشبان العاملين في "اتحاد الشبيبة العراقي" كانوا يؤمون اتحادنا ليعقدوا فيه جلساتهم ولقاءاتهم، وكل منهم طويل القامة مفتول العضل، ولا علاقة لهيئاتهم بالشعر ولا بالأدب، وقد طال صبر الجواهري وهو يراهم كل يوم أمامه، وذات مرة همس في أذني وهو يضحك: "أبو عمر.. ألا ترى أن صحة شعرائنا قد تحسنت أكثر من اللازم". فأدركت بسرعة مقصده، الذي بلغته للآخرين ممن بلغوا أعضاء الشبيبة، مفتولي العضل، بتقليل زيارتهم لاتحاد الأدباء.

وتختلف بنا الأحداث المؤلمة في بلدنا من أرض إلى أرض، ويكون أن نلتقي من آن لآن، فنسهر إلى مطلع الفجر في فندق في "براغ" وهو يتحدث بذكرياته ويقرأ من جديد شعره. وعن "الدار العصرية للنشر" ببيروت التي كنت أشرف على مطبوعاتها الأدبية، صدر ديوانه، وناشني بعض غضبه عليّ لأسباب لا ناقة لي فيها ولا جمل. ويزورني بعد ذلك في بيروت، وتطول سهرتنا وهو يقرأ آخر قصيدة كتبها اسمها "أنيتا ... لكي لا أظلم صاحبتها" ويعيدها ثانية لأسجلها، وقد تداخلت مع إلقائه اللذيذ أصوات المعجبين والمعجبات.. ثم نترك البيت، لوحدنا، لندخل ملهى ونخرج منه إلى مطعم ثم نعود إلى ملهانا الأول لنتمم سهرتنا إلى الصبح والجواهري لا يزال مملوءاً بصحوة لا تريد أن تعترف بأن هناك وقتاً للنوم. وأكتب له إلى "براغ" ويكتب لي "أخي وحبيبي أبا عمر. لكم سررت برسالتك، ولكم تمنيت لو أن لي قدرة التعبير بالحروف حتى عن شيء يسير مما يختلج في صدري من إحساسات عميقة كثيرة الألوان، وارفة الظلال، تجاهك بالذات، وبوصفك أنقى صورة وأجملها لأخوان أغيرة عليّ مثلك.. وعندما يتعلق الأمر بالخط وبالقلم والورق وبالبريد، فأنا صفر على الشمال وأهل ومحل لكل ظنة غير خيرة، وكفوء لكل عتب مر، فهل هذا رد فعل عنيف لكثرة ما لخبطت بالحرف والقلم والورق. فيما قسم لي من حظ عاثر بها؟.. على كل حال غيري من ينسى وغيري من يستهين بذكريات هي سجل كل حياتي. ولكن يا أبا عمر آه لو تعلم من أنا بعدكم وما أنا فيه من دنيا غريبة أجوس خلالها". ومرة أخرى نلتقي في مؤتمر عقد في "هلسنكي" وأشد على يديه طويلاً، وأحس بفرح كبير ونحن معاً في مسيرة رائعة أسهم فيها كل من سارتر ونيرودا وسيمون دي بوفوار وأيليا أهرنبورغ وغيرهم وغيرهم. ثم يكون لنا أن نسافر معاً إلى موسكو ونزور سوية متحف "الأرميتاج" الرائع في "لينينغراد" ونفترق على أمل أن نلتقي.

ويعود به الزمن لبغداد، وظن الرجل الكبير والشاعر الكبير، أنه قد آن له أن يحتضن بلده الحبيب، وأن لا يغادره بعد اليوم. لقد تعب من كل شيء. من المطارات والموانئ وكتابة الرسائل المعبرة عن آلامه ومتاعبه. وتعب حتى من كتابة الشعر. ولكن شيئاً واحداً لم ولن يتعب منه أبداً هو حبه لأهله ووطنه وأرض بلده، هذا

الحب الذي لم يعرفه أي شاعر من شعراء العالم كما عرفه الجواهري. ويحمل لي من بغداد، صديق زارني في بيروت، قصيدته، بل إحدى أروع قصائده..

أرح ركابك من أينٍ ومن سفر

كفاك جيلان محمولاً على الخطر

وينقل إليّ رغبته بأن نعود كلنا إلى الوطن، فأبادر بالرد على قصيدته بقصيدة لا أذكر منها إلا هذه الأبيات:

جاورت سفحك أم جاورت منحدري

سيان تحت سماوات بلا مطر

حتى صحاراك يا أرضي تملكها

مقت فعزت بآل موهم بصري

وصار دربك أني جئت طارقه

مفازة كل ما في عريها قدري

لمت كواكبها عني وما تركت

إلا دجى يلتقي حبلاً بمنتحر

أبا فرات .. أيها العزيز الكبير.. أعرف أنني أجرح تواضعك الجم إذ أكتب كل هذا، ولكنه حقك علينا جميعاً، حقك علينا في الشاعر والمناضل والبطل. حقك علينا وأنت ما زلت على مثل ما كنت، تحمل جراح غربتك بكثير من الإباء والشمم، وتحمل حبك لوطنك.. هذا الوطن الذي ما زال بعض أبنائه يتواطؤون ضده.

١٩٩٠/١٢/٢٦

ذكرى غياب الجواهري

عبد الرحمن منيف

وتنقضي السنة الثالثة على غياب الجواهري.

كان يظن أن أشياء كثيرة سوف تكتب خلال هذه السنوات الثلاث منذ ساعة رحيله وإلى الآن. ومن شأن هذه الكتابات أن تضيء جوانب عديدة في مسيرة هذا الشاعر الفذ والإنسان المتميز، لكن مما يؤسف له أن هذا لم يتحقق، فما كتب عنه كان ضئيلاً وثانوياً، ولم يخل بعضه من افتراء، الأمر الذي يبعث على الحيرة ويثير التساؤل، فهذا الشاعر الذي كان إلى الأمس القريب ملء السمع والأبصار ينزلق اليوم إلى العتمة، ولا يكاد يذكر إلا إذا جاء ما يذكر به، فما الذي جرى للناس، وما الذي دفعهم إلى الإهمال فالنسيان؟.

هذا السؤال، وما يماثله، لا يطال الجواهري وحده، فالإهمال ثم النسيان يمتدان ليشملا كل من ذهب، وليطاولا كل ما يعتبر ماضياً، وكأن الأحياء يضيقون ذرعاً بالموتى، أو أنهم لا يمتون إليهم بصلة أو بسبب، أو كأن الحياة تعني اللحظة التي تُعاش الآن، أي ليست لها علاقة بما كان قبلها أو بما سيجيء بعدها، لذلك لا حاجة بمن يعيش اليوم أن ينشغل بالذي عاش قبله أو الذي سيعيش بعده، فما مضى لم يعد موجوداً، وبالتالي لم يعد مؤثراً، والذي سيأتي لم يصل بعد، ومعنى ذلك أنهُ لن يقدر لهذين الطرفين أن يلتقيا، أو أن يؤثر أحدهما على الآخر فيما يتخذه من مواقف أو قرارات، وعليه يجب أن لا نشغل أنفسنا بأسئلة لا حاجة إليها ولا فائدة من طرحها، ولا بد أن نفكر فيما نعيشه من زمن، لا قبله ولا بعده، لأن كلاً منهما سيتكفل بنفسه!.

هذه النظرة، إضافة إلى ما يميزها من خطأ وخطل، فإنها غير واقعية وليست ممكنة، لأن الأزمنة متداخلة إلى درجة الامتزاج، ولأن التأثير يفرض نفسه دون سؤال أو استئذان.

أكثر من ذلك، أن العرب المعاصرين يحملون موتاهم على أكتافهم أينما ذهبوا، ويعيشون في تاريخهم والماضي أكثر مما يعيشون في واقعهم وفي اليوم الراهن، وهم لا يفعلون أمراً، ولا يتخذون قراراً إلا بعد استشارة الموتى وتقديم البخور والنذور، علَّ هؤلاء يسمحون أو ينوبون في اتخاذ القرارات!.

هذه هي حقيقة العلاقة بين الطرفين، ومع ذلك تبقى هذه العلاقة غامضة غير معترف بها، وبعض الأحيان ينكر وجودها، وتتخذ مواقف متطرفة لنفيها والتأكيد بعدم تأثيرها، بما في ذلك إهالة كميات كبيرة من التراب على الذين يغيبون والتظاهر بنسيانهم، والادعاء أن ما يتخذ من مواقف نابع من شروط اللحظة، ومن الوقائع التي أملت اتخاذها.

الجواهري بعد أن غاب احتجب تقريباً، لم تكتب عنه دراسات جادة، ولم يتم التطرق إلى مسيرته الشعرية أو الإنسانية إلا لماماً وبأشكال ثانوية. وإذا كان شعره قد غاب الآن فلا خوف عليه من ذلك لأن ما أهمل اليوم سوف يتم تداركه غداً وما نسي الآن سيجعل الكثيرين في وقت لاحق يعيدون النظر ويطلبون التأمل لأن شعره من الأهمية يحمل على الاكتشاف المرة بعد الأخرى بعد أن ينقشع الغبار، وبعد أن تغيب الضجة التي يثيرها عدد من الشعراء المعاصرين بهدف أن يبقوا وحدهم في مركز الضوء وملء العيون. لا خوف إذن على الجواهري وسوف يدرسه الكثيرون وسوف يكون موضع اعتزاز الأجيال القادمة هذا شيء مؤكد، ولا بد أن يعترف له حتى الخصوم وكما حصل في عدة مراحل سابقة أثناء جمع قصائده أو إعادة إصدار دواوينه، فقد تصدى عدد من الباحثين والنقاد البارزين وكتبوا عنه الكثير، ومع ذلك فإن جوانب أخرى من شعره ستكون موضع دراسة واهتمام خاصة وأنه يمثل نهاية مرحلة شعرية كاملة استمرت ما يزيد عن ألف وخمسمائة سنة، إذ بغيابه يسدل الستار على نمط من الشعر كان وحده المساند والمعترف به،

وكان وحده تقريباً يمثل الذائقة الشعرية العربية.

الآن، بغياب الجواهري بعد أن غاب قبله بدوي الجبل، ولعدم وجود شعراء مثل فحولته لهذا اللون من الشعر فإن مرحلة كاملة طويلة وحافلة تنتهي ويفسح المجال لأنماط احتمالات شعرية أخرى مختلفة أن تواصل الرحلة.

لا خوف إذن على شعر الجواهري، وسوف يتجدد ويتألق مرحلة بعد أخرى تماماً كما حصل مع كبار الشعر العربي القديم أمثال المتنبي والمعري وأبي تمام والبحتري، إذ ما زال شعر هؤلاء يدرس ويعاد اكتشافه خاصة وقد امتلك المعاصرون أدوات إضافية ونظرة جديدة في التعامل مع النصوص والكشف عما فيها من جمال وعبقرية وإبداع مما يساعد على تبين مواضع جمالية جديدة وإضافية في هذا الشعر.

الخوف، كل الخوف، ليس إذن على شعر الجواهري فهذا سيأتي أوانه لكن الخوف على الجوانب الأخرى في هذا الشاعر العظيم، الجانب الإنساني وما يندرج في هذا الإهاب حسب الأزمنة والأماكن والحالات للجواهري السياسي، والصحفي والمنتخب ليمثل الشعب في البرلمان، ثم الجواهري المسافر الراحل والقلق الأبدي والباحث عن أشياء يعرفها ويريد الوصول إليها، وعن أخرى يحس بها ويريد أن يتعرف عليها. ثم هناك الجواهري المحدث القارئ والناشر الذي يروي النكتة وذلك الذي تربطه علاقات وثيقة بعدد من الفنانين وكبار المثقفين، وكيف استطاع أن يكون ابن عصره من حيث الهموم والطموحات وبالتالي التعبير عن قلق العصر وعذابه.

إن الجواهري الإنسان بجوانبه المتناقضة، الإيجابية والسلبية، وفي هذا التعدد والتنوع في شخصه وسلوكه، وفي هذا الغنى الذي مثله عبر عمره الطويل، واختلاف الأماكن والتحديات والظروف التي واجهته، هذه الأمور وغيرها جديرة بالتدوين والتوثيق لأنها بمقدار ما تعكس طبيعة الرجل فإنها تعطي فكرة دقيقة وضرورية عن العصر الذي عاش فيه، والعوامل التي كونته وصقلته، وأيضاً الدوافع التي جعلته يتخذ هذا الموقف أو ذاك.

صحيح أن الفنان، أيّاً كانت وسيلته في التعبير، هو في النتيجة الأخيرة ما

يتركه من فن وما يبقى من هذا الفن، ومع ذلك فإن الإلمام بكل المراحل والعوامل التي كونت الفنان وتأثير العصر والبيئة الذين عاش فيهما، هذه المعلومات والتفاصيل تجعلنا على دراية أكبر ومعرفة أعمق ليس بإنتاجه الفني فقط بل وبكل الشروط المكونة والمحيطة التي جعلت الفن يأخذ هذا الشكل، والعصر الذي أملى ازدهار هذا النمط من الفن وبهذا الأسلوب.

الفنان الحقيقي هو الذي يكون ابن عصره الذي يمثل ذلك العصر، وإذا كان الكثير مما يقوله الفنان عن عصره يقوله بشكل غير مباشر، ومن خلال فنه فإن الحلقات المحيطة بهذا الفنان من أصغر الحلقات وأضيقها إلى أكبرها وأكثرها اتساعاً، يمكن أن تعكس، وبأشكال مختلفة جوانب عديدة من حياته وسلوكه وأفكاره والظروف المحيطة به والتي جعلته في النهاية يكون هكذا ويعبر بهذه الطريقة. معنى ذلك أن الحلقات المحيطة بالفنان والمبدع قادرة على إنارة جوانب عديدة من حياته وبالتالي من فنه، وهذا ما يجعل الكتابات التي يسجلها الأقربون ذات قيمة استثنائية لأنها تعكس الأعماق الخفية والدوافع الحقيقية التي أدت لاتخاذ هذا الموقف أو عدم اتخاذه، وبالتالي ما كانت لتتضح هذه الأمور لولا شهادات ذوي العلاقة بالفنان المبدع. وباعتبار شهادات كهذه ليست داخل إطار العمل الفني ذاته، أي ليس لها وجود وظلال في العمل، إلا أن أهميتها كباعث، غير قليلة، الامر الذي يساعد على فهم أفضل للعمل، خاصة وأن الفنان يغفل، معظم الأحيان الإشارة إليها، إذ ربما لم يرها أو يقدر دورها وأهميتها، في الوقت الذي تعني شيئاً للناقد أو لدارس العمل الفني.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات الحديثة تعطي أهمية خاصة للبيئة التي عاش في ظلها الفنان، وتلتفت إلى حاضنات العمل الفني، أي الشروط التي ولد خلالها هذا العمل، وتستعين من أجل استحضار هذا الجو إلى جميع العناصر المرافقة، بما في ذلك اليوميات والمذكرات والرسائل.

فإذا عدنا مجدداً من العام إلى الخاص، وتوقفنا عند محطات في إبداع الجواهري، نجد أن قسماً غير قليل من شعره لا يستقر على أرضية ثابتة، ولا يفهم

بدقة إلا إذا ألممنا بمناخ هذا الشعر من حيث العناصر والدوافع والظروف التي قيل خلالها، ثم ما ترتب على ذلك من نتائج.

فقصيدة تأبين عبد الحميد كرامي مثلاً لا تأخذ مداها إلا إذا تم استحضار الجو الذي قيلت فيه، ومحمد دكروب في كتابه "وجوه لا تموت"[1] يستحضر هذا الجو حين يتطرق لزيارة الجواهري إلى بيروت بهذه المناسبة. وقصيدة "أخي جعفراً" التي رثى بها الجواهري أخاه الذي سقط في الوثبة لا تستعيد ألقها وحرارتها إلا حين تعرف التفاصيل[2]. ورائعته عن المعري التي ألقيت في الألفية تلقى ضوءاً على طريقة الشاعر في التعامل مع القصائد الكبرى[3]، وكذلك الحال بالنسبة لقصيدته عن عدنان المالكي[4].

إن الأقارب والأصدقاء ثم الذين لهم علاقة عمل أو سكن، وأولئك الذين شهدوا وقائع معينة، إن هؤلاء ومن يماثلهم، أو من في حكمهم، يمكن أن يكونوا بالغي الأهمية والفائدة لو دونوا شهاداتهم عن المبدع الذي تربطهم به علاقة، لأن مثل هذه الشهادات، علاوة على الدقة التي يفترض أن تتسم بها، فإنها صادرة من الداخل، أي ممن لهم صلة بحكم القرابة أو المعرفة المباشرة والعمل، وهي غير متاحة لآخرين من البعيدين أو الغرباء، لذلك تشكل إضافة مميزة تضيء جوانب في حياة المبدع، ويمكن أن تفسر أموراً معينة ما كنت لتفسر أو لتفهم لولا هذه الشهادة.

ولأن الجواهري متعدد ومتنوع، فإن لدى كثيرين ما يقولونه، فالأسرة الصغيرة، الأبناء والبنات، يمكن لواحد منهم، أو أكثر، أن يرسم صورة الجواهري الأب، ولا بد أن تكون هذه الصورة بالغة الدقة والحميمية، وتكون مليئة بالتفاصيل غير المعروفة التي من شأنها أن تظهر الشاعر تحت أضواء جديدة.

---

(١) محمد دكروب، وجوه لا تموت، دار الفارابي بيروت ٢٠٠٠.

(٢) يورد الجواهري بعض التفاصيل في مذكراته.

(٣) المذكرات.

(٤) المذكرات.

وهناك تجربة قريبة قدمها رفعة الجادرجي حين كتب عن أبيه، كامل الجادرجي، فكان كتابه إضافة نوعية هامة[1].

ثم هناك المسيرة الحافلة للجواهري حسب المراحل والأماكن والمواقف والحالات، وما تخلل ذلك من ممارسات، سواء في الصحافة أو النيابة أو في العلاقات السياسية، ثمة عدد كبير من الأصدقاء الأحياء الذين كانت لهم صلة في إحدى المراحل، أو أكثر، ويمكن لهؤلاء أن يقولوا الكثير، باعتبارهم شهوداً أو شركاء، وسوف يكون ذلك إغناء لهذه الشخصية، خاصة وأن ما يتناوله الكثيرون عن مواقف وعلاقات لا بد أن توضح جزءاً من تاريخ وممارسات هذا المبدع، وأيضاً اجتهاداته السياسية، وما الذي دفعه لاتخاذ هذا الموقف. أكثر من ذلك ... يمكن أن يعاد تصوير الصحف التي أصدرها، والكلمات التي كتبها، بحيث تصبح سجلاً لمرحلة تاريخية.

أما الأماكن التي أقام فيها الجواهري، فإنها تشكل محطات بارزة في حياته ومواقفه وعلاقاته، فبراغ، مثلاً، كان يتردد عليها كثيراً، وكان يقيم فيها شهوراً طويلة متواصلة، وتكونت له فيها صداقات وعلاقات ومواقف، يذكر قسماً منها عدد من أصدقائه ومعارفه الذين كانوا يقيمون هناك خلال تلك الفترة. ويقال الشيء ذاته عن مدن أخرى أقام فيها الجواهري في بعض الفترات، ولا بد أن تحظى دمشق بنصيب وافر، إذ بالإضافة إلى المدة الطويلة التي قضاها فيها، فإنها من المدن التي أحبها وارتبط بها منذ وقت مبكر. ولا بد أن تكون الكتابات ـ الشهادات التي تسجل ذات فائدة للتاريخ من جانب، وقد تكشف تميزاً بين فترة وأخرى، بين مدينة والثانية، فيما نظمه من شعر، وتأثير المدن في هذا الاختلاف، من ناحية ثانية.

هذه العناصر، وأخرى أيضاً، تشكل المفاصل الأساسية في حياة وشعر الجواهري، إذ لولا وجودها، أو لو كانت بشكل آخر، لأخذ شعره مساراً مغايراً، ولأصبحت حياته مختلفة، لذلك فإن معرفة هذه العناصر، واكتشاف أنساق جديدة تساعد على تذوق أعمق، وربما مختلف لشعره، ثم لحياته.

---

(١) رفعة الجادرجي، صورة أب، مركز الأبحاث، بيروت.

ثم هناك محطات أو منعطفات، وربما لحظات، قد تشكل مفاصل هامة في حياة المبدع أو في إنتاجه، وبالتالي تفسر الاتجاهات والاختبارات التي طبعت حقبة من إبداعه وجعلته هكذا.

إن المبدعين الكبار شأنهم شأن الغابات الكثيفة، إذ يصعب اكتشافهم بالكامل أو دفعة واحدة، ولا بد أن يجري ذلك مرة بعد أخرى، وعبر وسائل متعددة، اعتماداً على المعلومات الجديدة التي تتوفر فترة بعد فترة، ومن خلال الأدوات النقدية التي يمكن الاستعانة بها. في إعادة قراءاتهم. فحين نستعين بأدوات علم النفس نبحث عن تصرفات وسلوكيات لها علاقة بهذا العلم، وبالتالي قادرة على تفسير بعض الظواهر. وحين نستعين باللغة كأداة للكشف فإننا نسترشد بها من حيث المفردات وظلالها للدخول إلى عالم هذا المبدع، وتحديد المؤثرات التي كونت ذاكرته وأعطتها نكهة جعلتها مختلفة عن غيرها، وهكذا بالنسبة للأدوات الأخرى في التحليل والنقد، ومن أجل تحديد مكونات المبدع.

مثل هذه المفاتيح قد لا تتيسر عن طريق الفنان مباشرة، ربما لأنه لا يريد أن يسلم الآخرين مفاتيحه، أو لعدم المعرفة الواعية بهذه المفاتيح ودلالاتها المتعددة، الأمر الذي يكشفه الناقد، أو الأسلوب الجديد لاقتحام هذا العالم ومعرفة أسراره وتعقيداته وخلفياته، وهذا الذي يمكن أن يقدمه بعض الذين لهم صلة بالمبدع، بحيث تتكشف اللحظات البراقة والفاصلة في حياته وفنه.

لقد جرت الإشارة، سنة رحيل الجواهري، لو أن بعض الذين عاصروه، من بقى منهم حياً، أن يدلي بشهادته، وأن تجمع مع شهادات سابقة، كي تكون إضاءة إضافية أثناء قراءة الشاعر من جديد، ولا تزال هذه الدعوة قائمة وضرورية، وفي الجانب الإنساني تحديداً، لأن شعره كما أشرنا، لا خوف عليه، ولا بد أن يأتي يوم يدرس فيه من جديد وتكتشف آفاق هذه الغابة الكثيفة والدائمة الخضرة.